﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التّوبة: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ الأمرِ بقتالِ النّاكِثينَ، وبينَ الأسبابِ الدّاعيّةِ إلى ذلك

لمّا أمرَ بقتالِهم حتّى ينتهوا ممّا هُم عليهِ شَرَعَ بذكرِ الأسبابِ الباعثةِ على قتالِهم، بأمورٍ ارتكبُوها، فَذَكَرَ ثلاثةَ أسبابٍ، كُلُّ واحدٍ منها يُوجِبُ مُقاتلتَهُم، ويكونُ باعثًا على الإقدامِ عليهم لَو انفردَ، فكيفَ بها حالَ الاجتماعِ؟ كما أنّ الحثَّ على قتالِهم جاءَ في صورةِ تعجيبٍ ممَّن يَتوانَى فيهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَمُّواْ﴾: يدورُ معنى الهمِّ حولَ ذَوَبانِ الشَّيءِ مُتَسَيِّبًا ممّا يجمعُهُ لحرارةٍ أو شدّةٍ، ومنهُ: الانهمامُ الّذي هو الانهضامُ في ذوبانِ الشَّيءِ واسترخائِهِ، بعدَ جُمودِهِ وصلابَتِهِ، ويُقالُ: انهَمّ الثّلجُ والشَّحمُ والبَرَدُ إذا ذابَ، ومِن ذلكَ الهَمُّ الحُزْنُ وهَمَّهُ الأمرُ وأهَمَّهُ: أَقْلَقَهُ وحَزَنَهُ، كما قالُوا: همَّهُ السُّقمُ والمَرضُ: أذابَهُ وأذهبَ لحمَهُ، ومنهُ: هَمَّ بالشّيءِ: نواهُ وأرادَهُ وترجّحَ عندَهُ فعلُهُ، كأنّما تحلَّبت إرادتُهُ وهَوَاهُ، طلبًا لِفعلِهِ، وَهَمَمتُ بِالشَّيءِ هَمًّا؛ إذا أَرَدتَهُ ولَم تَفعَلْهُ[2].

2) ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾: "خَشِيَ الرّجلُ يَخشَى خَشيَةً؛ أي: خافَ، فهوَ خَشيانُ والمرأةُ خَشيَاءُ. وخاشاني فلان فخَشَيتُهُ أَخشِيه بالكسرِ، عن أبي عبيد؛ أي: كنتُ أشدَّ خَشيَةً منهُ. وهذا المكانُ أَخشَى مِن ذاك؛ أي: أشدُّ خوفًا. وقولُ الشّاعرِ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392، وابن عادل، اللّباب: 10/35.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).

ولَقَد خَشِيتُ بِأنَّ مَنْ تَبِعَ الهُدَى *** سَكَنَ الجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قالوا: مَعناهُ: عَلِمتُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: 80] قالَ الأخفشُ: معناهُ: كرِهْنا"[1]، قولُهُ: "إلّا مَا كانَ مِن خَشيَةِ اللّهِ تعالى"؛ أي: مِن خوفِهِ، عنِ الجوهريِّ وغيرِهِ، "والخشيةُ: أحدُ مَصادرِ (خَشِيَ)، وهي ستّةٌ نظمَها شيخُنا أبو عبد اللّهِ بن مَالك في بيتٍ، وهو:

خَشِيتُ خَشْيًا وَمَخشَاةً وَمَخشِيَةً *** وخَشيَةً وخَشَاةً ثُمَّ خشْيَانَا"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن صَدَقَ اللهَ واتّقاهُ، كانَت خشيتُهُ لله لا لأحدٍ سواهُ

ألَا تُقاتلونَ - أيُّها المؤمنونَ - هؤلاءِ المُشركينَ الّذين نقضُوا العهدَ الّذي بينَكم وبينَهُم، وعقدُوا نيّتَهُم على إخراجِ الرَّسولِ مِن بين أظهرِهِم، حين تَشاوروا في أمرِه بدارِ النَّدوةِ؟ وهُم بدؤوكُم أوَّلَ مرَّةٍ بالمُعاداةِ والمُقاتلةِ؟ أتخافونَهم؟ أو: أتخافونَ ملاقاتَهُم في الحربِ؟ فاللّهُ أولى بكُم أن تَخشَوهُ، إن كنْتُم مُؤمنينَ حقًّا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّحضيضِ في ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾:

تهييجُ المؤمنينَ على المُبالغةِ في قتالِ المذكورينَ

لمّا كانَت (لا) لنفي المُستقبَلِ دلَّ على أنَّ الفعلَ لم يتحقَّقْ وجودُه بعدُ، فكانَ دخولُ همزةِ الاستفهامِ على الفعلِ المنفيِّ، إنكارًا على عدمِ مُقاتَلتِهم، وتقريرًا لانتفاءِ المُقاتَلَةِ، وتوبيخًا لَهُم على تركِها؛ ليفيدَ تحضيضَ المؤمنينَ عليها في المستقبلِ، وإغراءً لهم وتهييجًا على سبيلِ المبالغةِ في الفعلِ؛ أي: في المُقاتَلَةِ، فإنّه حيث كانَ التَّركُ مُستقبَحًا مُنكَرًا أفادَ بطريقٍ برهانيٍّ أنَّ إيجادَه أمرٌ مَطلوبٌ مَرغوبٌ فيه، فيفيدُ الحثَّ والتَّحريضَ عليه، وتولَّدَ مِنَ الاستفهامِ معنى

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خشي).
(2) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 114.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

الَعَرضِ الّذي يفيدُ الطّلبَ برفقٍ ولينٍ، ترغيبًا في قتالِ النّاقضينَ العهدَ المَوصوفِينَ بما يُوجِبُ قتالَهُم، فكانَ الحثُّ على المُقاتَلَةِ، والتّحضيضُ عليها بهذا الأسلوبِ أبلغَ ممّا لو أُثبِتَ بغيرِهِ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُستقبلِ ﴿تُقَٰتِلُونَ﴾:

ما يحضُّ عليه القرآنُ، نصرٌ في العاجلةِ، وفوزٌ في الآجلةِ

لمّا كانَ المُرادُ هو التّحضيضَ على القتالِ، وكانَ التّحضيضُ لا يقعُ إلّا في المُستقبلِ[2] جِيءَ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على المُستقبلِ، كما أفادَتِ الصّيغةُ تجدُّدَ التّحضيضِ على قتالِهِم، كلَّما اتَّصفُوا بالأوصافِ المذكورةِ.

فائدةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿قَوْمًا﴾:

القومُ هُمُ الّذين يكونونَ ذوي مَنعةٍ وقوّةٍ عظيمةٍ

عُبِّرَ بالقومِ في قولِهِ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾، ولم يُقلْ مثلًا: (ألَا تُقَاتِلُونَ مَن نَكَثُوا أيمَانَهُم)؛ للإشعارِ بأنَّ الّذين تُقاتِلُونَهُم هُمُ الّذين أعدُّوا أنفسَهُم لِلحروبِ، وأنَّهم ذوو مَنعةٍ عظيمةٍ، فإنَّ الأصلَ أن يُطلَقَ اللَّفظُ على الرّجالِ، وهُوَ المناسبُ لِمَقامِ القتالِ، وأشعرَ اللَّفظُ كذلكَ أنَّ المَذكورينَ بأوصافِهِم هُمُ القادةُ والقائمونَ بالأمرِ، وأنَّ بعضَهم يقومُ مع بعضٍ في العملِ بالأوصافِ المذكورةِ للقومِ[3].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوْمًا﴾:

تنكيرُ القومِ لإفادةِ العُمومِ؛ ليشملَ أيَّ قومٍ يتَّصفُونَ بالأوصافِ المذكورةِ

لمّا جاءَ ﴿قَوْمًا﴾ في سياقِ الإنكارِ دلَّ على العمومِ، بمعنى الحضِّ على قتالِ أيِّ قومٍ مَوصوفينَ بالأوصافِ المذكورةِ، فمَنْ كَانَ في مِثلِ هذهِ الصِّفاتِ مِن نَكثِ العُهُودِ وإخرَاجِ الرّسولِ والبَدءِ بالقِتَالِ مِن

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/309، والزّمخشري، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/172، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/172.

(2) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/423.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/280، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392.

غَيرِ مُوجِبٍ حَقِيقٌ بأَن لا تُترَكَ مُصَادَمَتُهُ، وأَن يُوَبَّخَ مَن فَرَّطَ فِيهَا[1]؛ ليكونَ الكلامُ مُنتقِلًا مِن خصوصيَّةِ قتالِ أئمَّةِ الكُفرِ إلى عُمومِ قتالِ كُلِّ قومٍ اتّصَفُوا بالصِّفاتِ المذكورةِ، ولمّا كانَ أئمَّةُ الكفرِ قد نكثُوا أيمانَهم، وطعنُوا في الدّينِ أفادَ دخولَهُم في القومِ الّذين حضَّ على قتالِهم دخولًا أوّليًّا؛ ليكونَ تأكيدًا للأمرِ بقتالِهم، وتقريرًا له.

دلالةُ الجُملِ الثّلاثِ بعدَ الاسمِ النّكرةِ ﴿قَوْمًا﴾:

توالي المُخالفات يُفضي إلى فسادِ الطّبعِ، وتحجُّرِ المَشاعِرِ

لمّا كانَ لفظُ ﴿قَوْمًا﴾ نكرةً في قولِه تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كانَتِ الجملُ الّتي تلتهُ صفاتٍ؛ ليفيدَ اتِّصافَهُم بصفةِ نَكثِ الأيمانِ والهمِّ بإخراجِ الرّسولِ، وكونهم هُم بَدؤوا المُؤمنينَ أوّلَ مرَّةٍ، ولمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ وقولُهُ: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ بصيغةِ الفعلِ المُتحقِّقِ الوقوعِ في الماضي، دلَّ على أنَّ هذا الاتِّصافَ على وجهِ لزومِ المعنى عندَهُم وثباتِهِ في قلوبِهِم؛ بمعنى: أنّها صارَت لهم عادةً وخُلُقًا[2].

سببُ إيثارِ وصفِ القومِ بثلاثِ جملٍ مُتعاطِفةٍ:

مُوجِباتُ القتالِ نشأَت مِن قِبَلِ العدوِّ، لا مِن قِبَلِ المؤمنينَ

وَصَفَهُم بثلاثةِ أوصافٍ تُوجِبُ الحَضَّ عَلَى المُقاتَلَةِ؛، للإيذانِ بأنَّ مُوجِباتِ القتالِ نشأَت مِن قِبَلِ العدوِّ لا مِن قِبَلِ المُؤمنينَ، فبَدَأَ بالسَّببِ الأعظمِ والأهمِّ اعتبارًا، والأكثرِ تهييجًا لِلمُؤمنينَ على المُقاتَلَةِ؛ بمعنى: قاتلوهم؛ لأنّهم اجترؤوا على اللّهِ، فنكثُوا الحِلفَ به في عهدِهِم، ولأنَّهم اجترؤوا على رسولِه ﷺ الّذي هو أعلى الخَلقِ قدرًا، فهمُّوا بإخراجِهِ، ولأنَّهم عادَوا المؤمنينَ، فبدؤوا بمُقاتلتِهم، وذكرَ ثلاثةَ مُوجِباتٍ؛ لأنَّ تعديدَ المُوجِباتِ القويّةِ وتفصيلَها ممّا يُقوِّي داعيةَ المُقاتلةِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/393.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535.

دلالةُ الصّفةِ على السَّببيَّةِ:

وَصَفَ القومَ الّذين حضَّ على قتالِهم بثلاثِ جملٍ، وأفادَ الوصفُ معنى السَّببِ الّذي يَبعثُ على مقاتلتِهم كما تقدَّمَ، فجاءَتِ الأوصافُ مَعطوفةً بالواوِ الّتي تفيدُ التّشريكَ في الحُكمِ؛ لِيُفيدَ العطفُ أمرين: أحدُهما: صلوحُ كلِّ سببٍ لو انفردَ بأنْ يكونَ باعثًا على المُقاتلةِ، والثّاني: أنَّ اجتماعَ هذه الأسبابِ الثّلاثةِ يكون أدعى في الحضِّ على قتالِهم؛ أي: إنَّ كلَّ واحدٍ منها على انفرادِهِ كافٍ في الحضِّ على مُقاتلتِهم، فكيفَ بها حالَ الاجتماعِ[1]؟

كلُّ سببٍ باعثٌ على القتالِ، فكيف إذا اجتمعَتِ الأسبابُ؟

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، لأنّ النَّكثَ في أصلِهِ هو الرّجوعُ إلى خلفٍ، ثمّ استُعمِلَ في النّقضِ مَجازًا، بجامعِ أنّ كلًّا مُتأخِّرٌ عن مَطلوبِهِ، وقد عَبَّرَ مِن خلالِ هذه الاستعارةِ عن بشاعةِ الفعلِ الّذي هو نقضُ الأيمانِ بنَكثِها، ممّا هُو مُستقبَحٌ في العُرفِ، ومُحرَّمٌ في الشَّرعِ[2]، شُبِّهَ نقضُ الأيمانِ بنَكثِ الخيوطِ بعدَ نسجِها وإبرامِها إيذانًا بالفسادِ الحاصلِ؛ لأنَّهم نقضُوا العهدَ بعدَ إحكامِهِ، وقد صرّحَ بالمشبّهِ بهِ - وهو النكثُ - على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ، وتكرّرَت هذهِ الصّورةُ تِباعًا في هذه الآيةِ وسابقتِها.

نكثُ الأيمانِ مِن أسوأ ما يَقترفُهُ الإنسانُ

مُناسبةُ تَكريرِ قولِهِ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾:

كرّرَ التّركيبَ في قولِهِ: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ مِن حيث اللّفظُ؛ لأنّه هنا في مَعرِضِ ذكرِ مُوجباتِ المُقاتَلةِ والباعثِ عليها، ولم يكرّرِ الطّعنَ في الدّينِ؛ لتعظيمِ شأنِ نكثِ الأيمانِ، ولأنّهُ لمّا كانَ في مَعرِضِ بيانِ أسبابِ المُقاتَلةِ بدأَ بما يتعلَّقُ باللّهِ تعالى.

نكثُ الوعودِ فَسادٌ للنّفوسِ، وهلاكٌ في العَواقِبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/381.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 5/155.

دلالةُ الفعلِ ﴿وَهَمُّواْ﴾:

إفـــادةُ الـهـمِّ معنى النيَّةِ على الفعلِ والرَّغبةِ فيهِ

أُريدَ بالهمِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ نيَّتُهُم إخراجَ الرَّسولِ ورغبتُهم فيهِ في قلوبِهم مع انتفاءِ حصولِ الإخراجِ؛ لأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ خرجَ بنفسِهِ بإذنِ اللّهِ له؛ أي: إنَّ مُؤاخذتَهُم في هذهِ الآيةِ على مُجرَّدِ الهمِّ بإخراجِ الرَّسولِ، تدُلُّ على أنَّهم لم يُخرِجُوهُ، وإلّا لكانَ الأجدَرُ أنْ يَنعى عليهم الإخراجَ لا الهمَّ بذلك الفعلِ[1].

سببُ إيثارِ ذكرِ الهمِّ بالإخراجِ:

مَن حَمتهُ رعايةُ اللهِ لم يضرّهُ كيدُ البشرِ

لمّا همَّ المُشركونَ بأحدِ أمورٍ ثلاثةٍ؛ قتلِهِ ﷺ وحبسِهِ وإخراجِهِ، وإليه يُشيرُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 67]، وكانَ الهمُّ بالإخراجِ هو الّذي وقعَ أثرُهُ في الخارجِ بحسبِ الظَّاهرِ اقتُصِرَ عليه، فالواقعُ في الخارجِ هو الهمُّ لا الإخراجُ؛ لأنَّه ﷺ خرجَ بنفسِهِ كما تقدَّمَ، ويُحتمَلُ أن يكونَ الاقتصارُ على الهمِّ بالإخراجِ لأنّهُ أدنى مِنَ القتلِ أو الحبسِ؛ ليُعلَمَ غيرُهُ بطريقِ الأولى، كما يُحتمَلُ أنْ يُقالَ: إنّهم لمّا ائتمروا فيما بينَهُم في دارِ ندوتِهم على قتلِهِ ﷺ بأيدي عُصبةٍ مُؤلَّفةٍ مِن شبّانِ بطونِ قُريشٍ كلِّها؛ ليتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ، فتتعذَّرَ المطالبةُ بهِ، وكانَ هذا الائتمارُ هو الحاملَ لهُ على الخروجِ إلى دارِ الهجرةِ اقتصرَ على ذكرِ همِّهِم بإخراجِهِ دونَ همِّهِم بحبسِهِ، وهمِّهِم بقتلِهِ، ويُحتمَلُ أن يكونوا قد همُّوا بإخراجِ الرّسولِ مِنَ المدينةِ أيضًا، بعدَ أن رَجَعَ إليها عَقِبَ الفتحِ، بأن يكونوا قد همُّوا بغزوِ المدينةِ، وإخراجِ الرَّسولِ والمسلمينَ منها، وتشتيتِ جامعةِ الإسلامِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/133.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/534، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/247، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

(أل) هنا في قولِهِ: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ عهديّةٌ بمعنى الرّسولِ الّذي تعرفونَهُ، وهو سيّدُنا مُحمَّدٌ ﷺ، ومناسبةُ مجيءِ اللّفظِ مُعرَّفًا بـ(أل) دونَ أن يقولَ: وهمُّوا بإخراجِ رسولِ اللّهِ الإيذانُ بأنَّ رسولَ اللّهِ حاضرٌ في قلوبِهم وأذهانِهم، أو لاستحضارِهِ في قلوبِهم؛ ليكونَ أدعى إلى تصوُّرِ الهيبةِ، ولتعظيمِ شأنِ إخراجِهِ ﷺ من بيتِهِ وبلدِهِ.

تعظيمُ شأنِ التَّعرُّضِ لرسولِ اللهِ ﷺ

براعةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾:

جاءَت هذه الجملةُ اسميَّةً لتُخالِفَ ما سبقَها مِنَ الجملتينِ اللّتين وردَتا بصيغةِ الجملةِ الفعليّةِ؛ لتُفيدَ تقويةَ حُكمِ السّببِ المُوجِبِ للقتالِ عندَ المُخاطَبينَ؛ لزيادةِ التّأكيدِ والتّقريرِ، بسببِ مَجيءِ خبرِها جملةً فعليَّةً، ونكتةُ زيادةِ التّقريرِ في هذه الجملةِ: أنَّ ما سبقَها يتعلَّقُ باللّهِ وبرسولِهِ، فالسَّببُ المُوجِبُ لمقاتَلةِ المُشركينَ أقوى، فلمّا تعرَّضَ لذكرِ السّببِ المُتعلِّقِ بالمؤمنينَ جاءَ بهذهِ الطّريقةِ لتقويةِ المعنى في نفوسِهم.

الظُّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، والبادِئُ بالظُّلمِ أظلمُ

دلالةُ حذفِ المُتعلَّقِ في قولِهِ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾:

حَذَفَ مُتعلَّقَ ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ لإفادةِ عمومِ المُعاداةِ الّتي بدأَها الكافرونَ؛ ليفيدَ بداءَتَهُم في النَّكثِ، وفي القتالِ، وفي الشّرِّ؛ لأنَّه ﷺ بدأَهُم بالدَّعوةِ، وإلزامِ الحُجَّةِ بالكتابِ، والتّحدّي بهِ، فعَدَلُوا عَن مُعارضتِهِ إلى المُعاداةِ والمُقاتَلَةِ[1].

دعوةُ رسولِ اللهِ حُجَّةٌ وبيانٌ، ويدُ الكفّارِ مُقاتَلَةٌ وعدوان

دلالةُ النَّصبِ والإضافةِ في قولِهِ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ نصبٌ على المصدريَّةِ، والإضافةُ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، والتَّقديرُ: وهُم بَدَؤُوكُم

الرّسولُ لا يبدأُ الأعداءَ بعدوانٍ، ولكن يَصدُّ غوائلَ العدوانِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

مرَّةً أُولى، والمرَّةُ الواحدةُ مِن حدثٍ يحدُثُ، فمعنى ﴿بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾: بَدَؤُوكم أوّلَ بَدءٍ بالنَّكثِ؛ أي: بَدءًا أوَّلَ، فالمَرَّةُ اسمٌ مُبهَمٌ لِلوَحدةِ مِن فِعلٍ ما، والأغلبُ أنْ يُفَسَّرَ إبهامُهُ بالمَقامِ كما هنا، وقد يُفَسِّرُهُ اللَّفظُ، ويُفيدُ المصدرُ هنا توكيدَ الحدثِ وتقريرَهُ[1].

براعةُ الحثِّ على القتالِ في قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾:

تهييجُ المؤمنينَ لإظهارِ شجاعتِهم وقوّتِهم أمامَ أعدائِهم

لمّا كانَ الضَّميرُ في ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾ عائدًا على المُشركينَ أفادَ أنَّ المعنى: أتخشونَ المُشركينَ؟ ولمّا كانَ الخطابُ لِلمُؤمنينَ دلَّ على أنَّه يَتكلَّمُ في خصمِهم، فيكون فيه تهييجٌ للمُؤمنينَ؛ لإظهارِ شجاعتِهم وقوّتِهم، فإنَّه إذا قِيلَ للرَّجلِ: أتَخشى خصمَكَ؟ كانَ ذلك تَحريكًا منهُ لِأنْ يَستَنكِفَ أن يُنسَبَ إلى كَونِهِ خائفًا مِن خَصمِهِ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾:

توبيخُ المؤمنينَ مِن خشيتِهم الكافرينَ

جاءَ الاستفهامُ على معنى الإنكارِ والإقرارِ، بمعنى الإنكارِ على خشيةِ الكافرينَ، والخوفِ منهُم، وإقرارِ أنَّ تركَ مُقاتَلَتِهم بسببِ الخشيةِ منهُم، وذَلِكَ لِتوبيخِ المُؤمنينَ والتّعجيبِ مِن خشيتِهم الكافرينَ، وفي طيِّ التّوبيخِ حضٌّ على مُقاتَلَتِهم، إذ وصفَهُم بما يُوجِبُ الرّغبةَ فيها، ويُحقِّقُ أنَّ مَنْ كانَ على تلكَ الصّفاتِ السّيّئةِ حقيقٌ بأنْ لا تُترَكَ مُصادمتُهُ، ويُوَبَّخَ مَن فَرَّطَ فيها[3]، والمرادُ: أتخشونَ أنْ ينالَكُم مَكروهٌ منهم، حتَّى تتركُوا قتالَهُم؟ لأنَّ الخشيةَ في المُقاتَلَةِ إنَّما هي مِنَ الإصابةِ بمَكروهٍ، لكنّهُ قالَ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾، ولم يقُلْ: أتَخشونَ الأذى أو المَكروهَ منهُم؛ لِلمُبالغةِ في الكلامِ؛ لأنّهُم إنْ لم يخشَوهُم فلن يخشَوا أذاهُم ولا وقوعَ الضُّرِّ منهُم؛ كما أنَّ فيه تهييجًا لِلمُؤمنينَ، وحثًّا لَهُم على تَركِ الخوفِ مِن قتالِ الكافرينَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/536.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/48، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستفهامِ المجازيِّ:

عُبِّرَ عن تركِ قتالِ المُشركينَ بالخشيةِ مِنهُم؛ أي: ذكرَ المَلزومَ، وأرادَ لازمَهُ على سبيلِ الكنايةِ لِلمُبالَغةِ في المعنى، وليكونَ أوثقَ في تحقيقِ المُدّعَى، فإنَّه يلزمُ مِن خشيتِهم تركُ قتالِهم؛ والمعنى: أتتركُونَ قِتالَهُم خشيةَ أن يَنالَكُم مَكروهٌ مِنهُم[1]؟

مَن يخشَ الأعداءَ لا يقاتلْهُم

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾:

أُوثِرَتِ الخشيةُ على الخوفِ هنا؛ لِمناسبةِ المقامِ؛ لأنَّ الخشيةَ خوفٌ مع تعظيمٍ لِلمَخُوفِ منهُ، فلمّا دخلَت همزةُ الاستفهامِ المفيدةُ للإنكارِ دلَّ على أنَّ الإنكارَ على أمرين: الخوفِ مِنهُم، وتعظيمِ شأنِهم أو قوّتِهم وعددِهم[2].

الخشيةُ تجمعُ معنى الخوفِ والتَّعظيمِ

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ﴾:

الفاءُ تفريعيّةٌ – على التّقريرِ في قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ – ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ ؛ أي: فاللهُ الّذي أمرَكُم بقتالِهم أحقُّ أنْ تخشَوهُ إنْ خطرَ في نفوسِكُم خاطرُ عدمِ الامتثالِ لأمرِهِ، وفي الفاءِ أيضًا نوعٌ مِن تعليلٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ وإنْ كانَ للتَّقريرِ لكنَّهُ مُضمَّنٌ مَعنى النَّهي، كأنَّه قِيلَ: لا تخشَوهُم؛ لأنَّ اللّه أحقُّ بالخشيةِ وأحرى بالطّاعةِ[3].

النّهيُ عن خشيةِ الكُفّارِ؛ لأنَّ اللهَ أحقُّ بالخشيةِ وأحرى بالطَّاعةِ

دلالةُ اسمِ التّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ اسمُ التّفضيلِ ليسَ على بابِهِ، فهو بمعنى حقيق[4]، فليسَ لغيرِ اللّهِ أحقّيَّةٌ في الخشيةِ منهُ أو تعظيمِهِ، ونكتةُ مجيءِ اسمِ التّفضيلِ هي نفيُ الاشتراكِ، وتفرُّدُ اللّهِ بالخشيةِ، ولإفادةِ أنَّ خشيتَهُ ينبغي أن تكونَ في أعلى مَا يمكنُ.

ليس لغيرِ اللهِ أحقّيَّةٌ في الخشيةِ مِنهُ أو تعظيمِهِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/10.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

إفادةُ الحصرِ في قولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾:

المُؤمِنَ أشجَعُ النَّاسِ، وأعلاهُم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يَخشَى إلَّا اللهَ

لمّا كانتِ الفاءُ للتّفريعِ على الإنكارِ على الخشيةِ مِنَ الكافرينَ، ثمَّ أثبتَ أحقّيّةَ اللهِ بالخشيةِ، وعلَّقَ السَّببَ على كونِهم مُؤمنينَ دلَّ الكلامُ على معنى الحصرِ؛ بمعنى أنَّ مُقتضَى الإيمانِ أنْ لا يُخشَى إلَّا مِنَ اللهِ، فالمَقامُ يدُلُّ عليهِ، إذ أنكرَ خشيةَ الغيرِ، ولا يضرُّ انتفاءُ أداةِ الحصرِ، فقد يَقومُ السّياقُ مقامَها، وفيهِ إشعارٌ أنَّ المُؤمِنَ يكونُ أشجَعَ النَّاسِ، وأعلاهُم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يَخشَى إلَّا اللهَ [1] ﷻ.

تنوُّعُ المعنى لِتنوُّعِ التَّوجيهِ الإعرابيِّ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾: الاسمُ الجليلُ ﴿فَٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿أَحَقُّ﴾ خبرُهُ، و﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿فَٱللَّهُ﴾؛ والمعنى: خشيةُ اللهِ تعالى أحقُّ، وهذا التّقديرُ على معنى تكريرِ الحُكمِ لزيادةِ التّقريرِ والإيضاحِ، ويُحتمَلُ أن يكونَ التّقديرُ: (بأن تخشَوهُ)؛ والمعنى: اللهُ أحقُّ مِن غيرِهِ بالخشيةِ، ويُحتمَلُ أن يكونَ ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ مبتدأً، خبرُهُ ﴿أَحَقُّ﴾، والجملةُ خبرُ الاسمِ الجليلِ، والمعنى: اللهُ خشيتُهُ أحقُّ [2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ:

تأكيدُ الجزاءِ بأسلوبِ الشّرطِ، وأثرُهُ في المعنى

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يُحتمَلُ أن يكونَ أسلوبُ الشّرطِ للتَّهييجِ وللتّحضيضِ على الفعلِ، ولا يُقصَدُ فيه معنى الشّرطِ والجزاءِ، كَمَن يُقالُ له: افعلْ هذا إنْ كنتَ شُجاعًا، وهو أسلوبٌ عربيٌّ فصيحٌ شائعٌ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الكلامُ على معنى الشّرطِ حقيقةً، ويكون الجزاءُ محذوفًا معلومًا مِنَ السّياقِ؛ أي بتقديرِ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ وَجَبَ عليكُم أنْ تُقدِمُوا على هذه المُقاتَلَةِ، ومفهومُهُ: أنَّكُم إنْ لم تُقدِمُوا عَلَيها وَجَبَ أن لا تكونوا مُؤمنينَ، أو: إنْ صَحَّ أنَّكُم مُؤمنونَ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255.

حقًّا فلا تَخشَوا إلا اللّهَ[1]، وعلى كلا التّقديرين يكونُ الشّرطُ على معنى تأكيدِ الجزاءِ؛ لأنَّهُ لمّا ذُكِرَ قبلَ الشَّرطِ صريحًا، ثمَّ نُوِيَ معناهُ بعدَ الشّرطِ تقديرًا أفادَ تكريرَ المعنى وتقريرَهُ.

دلالةُ لفظِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

مُقتضَى الإيمانِ الصّحيحِ أنْ لا خشيةَ إلّا مِنَ اللهِ

لمّا كانَ الخطابُ لجميعِ المؤمنينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وكانَ طلبُ الحاصلِ غيرَ مُتصوَّرٍ دلَّ على أنَّ المُرادَ إنْ كنتُم كاملي الإيمانِ، أو إنْ كنتُم مُؤمنين حقًّا، أو المعنى: مُقتضَى الإيمانِ الصّحيحِ أنْ لا يَخشى المُؤمنُ إلّا اللّه؛ لأنَّ قدرتَهُ ﷻ أتمُّ، وعقابَهُ أشدُّ، بلْ لا قدرةَ إلّا لَهُ، ولا يكونُ إلّا ما يريدُ، فأفادَ الشّرطُ الحضَّ على القتالِ كَذلكَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشيةُ والخوفُ:

الخشيةُ: هي الخوفُ المَقرونُ بالعلمِ، والخوفُ: مُجرَّدُ الذُّعرِ دونَ حاجةٍ لِلعلمِ

وَرَدَ في هذه الآيةِ معنى الخشيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، والخشيةُ لونٌ مِن استشعارِ الخوفِ، لكنّهُ مَقرُونٌ بالعِلمِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وأمّا الخوفُ فهوَ مُجرَّدُ ذُعرٍ يحصلُ للإنسانِ ولو بلا عِلمٍ، ولهذا قد يخافُ الإنسانُ مِن شيءٍ يتوهَّمُهُ، وهوَ في أصلِهِ لا حقيقةَ لهُ، فقد يَرى في اللّيلةِ الظّلماءِ شَبحًا لا وجودَ لهُ، فيخافُ منهُ، فهذا ذُعرٌ مَبنيٌّ على وَهمٍ، لكنّ الخشيةَ تكونُ عن عِلمٍ؛ فقد ذَهَبَ مُوسى عليه السلام، وقالَ لِفرعونَ ما أمرَهُ اللّهُ بِهِ: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النّازعات: 18 - 19][3]، والفرقُ بينَ الخوفِ والخشيةِ: أنّ الخوفَ يَتعلَّقُ بالمَكروهِ، وبتَركِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/536، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.

(3) محمّد بن صالح العثيمين، تفسير جزء عمّ، ص: 46.

المَكروهِ، في قولِكَ: (خِفتُ زيدًا)، وتقولُ: (خِفتُ المرضَ)، كما قالَ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، والخشيةُ تتعلَّقُ بمُنزِلِ المَكروهِ، ولا يُسمَّى الخوفُ مِن نفسِ المَكروهِ خشيةً، ولهذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: 21][1]، فالخشيةُ تتعلَّقُ بالمعنويِّ، والخوفُ يتعلَّقُ بالمَحسوسِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»